

اسرائيليات

أقل ما يمكن أن يقال في العلاقات بين الأمم إنها أمر غير أكيد ، فثمة التناقض بين السعي نحو الانسجام وبين ما يعترض ذلك من غموض وعدم انتظام .



أنت تعلمني وأنا أعلمك : كيف نتعايش !



ألف هنر أيقن

هل تصبو الأمم حقا إلى السلام أو أن النزاع ييبها بشكل جزء لا يتجزأ من الظروف البشرية ؟ أو ترى - على ما يقتضيه البعض - أنها تعمل هاتان القوتان معا في آن واحد . بشكل يفترق دوما للتوازن ، إنما هذا الازدواج في طبيعة الإنسان هو هو في الواقع السبب في وضعنا غير الأكيد . فلماذا إمكانية نشوب حرب بين هولندا وبلجيكا مثلا . لا يمكن أن نخطر على بال . في حين أنها إمكانية واقعة ما بين تنزانيا وأوغندا . ولماذا تمكن الحرب

تكرار بين اليمن واليمن الجنوبي ولماذا تشكل إمكانية ما بين سوريا وإسرائيل ؟ ولماذا تخوض فرنسا وألمانيا ثلاث حروب في أجيال ثلاثة متعاقبة . بينما يقوم اليوم جيل في هذين البلدين هو الثاني على التوالي يرى الحرب بينهما بكل بساطة أمرا أشد ما يكون بعدا عن العقل والمنطق ؟ ولماذا يقوم ذات المصريين الذين كانوا قد أقاموا أشد المظاهرات الجاهلية تطرفا ضد إسرائيل في مايو ١٩٦٧ حاملي زيايات الموت والدمار . لماذا يقوم ذات المصريين في الستين الآخرين بتقديم مظاهر وتعايير الترحاب والاحتفاء بالاسرائيليين ؟

لعل الزائر من الفضاء الخارجي - ذلك الزائر الذي طالما خاض إلى استنفاذه كلما اتابنا حيرة أو ارتباك . يستنج

مرغبا أن الحسن البشري مصاب بالشذوذ أو أنه محمول أو أن الأسرار التي تتحكم في أحوال هذه التغيرات الحادثة يقصر عنها عقله وإدراكه . ولعله لكي يثبت رأيه بعدم إلى الرغم بأن هذه التغيرات مهما تعدد التكهّن بإمكانية حصولها إنما يمكن تفسيرها عن طريق النظر إلى الوراء . فأكبر التعليلات والتفسيرات التي أطلقت على أثر الزيادة التاريخية التي قام بها الرئيس أنور السادات للقدس في تشرين الثاني ١٩٧٧ شرحا لثاقته الشجاعة الحلاقة . بيد أنه على الرغم من أن كل هذه التعليلات والتفسيرات تعود إلى ما قبل تشرين الثاني ١٩٧٧ فليس ثمة من نجح على التنبؤ بمثل هذا الحدث الدراماتيكي .

وسيدور بحثنا في كيفية إدراك الأمم مصالحها الوطنية والعوامل التي تحكم هذه المصلحة والعوامل التي تهددها . لقد كانت الولايات المتحدة ما بين سنتي ١٩٤٨ و ١٩٧٢ تنظر إلى الصين الشيوعية كعامل يهدد المصلحة الوطنية الأمريكية . ثم لم تلبث هذه النظرة أن تغيرت بين عشية وضحاها بحيث أصبحت الصين تعتبر اليوم أشبه بالخليف . وهنا من الطبيعي أن تسأل :

كيف نحدد باترى الفكرة عن معنى المصلحة الوطنية بالذات ؟ هل تغير الأمم مصالحها الوطنية بمجرد تغير فكرتها عن معنى هذه المصلحة أو أن الفكرة عن طبيعة المصلحة الوطنية هي التي تتغير بتغير المصلحة ؟ إن السؤال في غاية الأهمية ولكن الخوض في تلافيفه قد يصرفنا عن الموضوع الذي نحن فيه والذي هو : كيف تتكون أفكار الأمم بعضها عن بعض ؟ وما هو دور الثقافة والتعليم في صياغة هذه الأفكار ؟ وما هو دور الثقافة والتعليم في عملية السلام بين مصر وإسرائيل ؟

إن أفكار أمة من الأمم تكون في أصلها : أفكارا مستقطبة ذلك أن أفكار أي أمة عن نفسها تصب على أنها قطب فريد في الحضارة . بينما سائر الأمم مجموعات متوحشة . وهكذا كانت فكرة اليونان عن العالم المحيط بها . وهكذا كانت فكرة الصينيين عن أنفسهم من جهة وعن الآخرين من جهة أخرى . وتعكس الكتاب المقدس أن المصريين القدماء كانوا يكرهون أن يأكلوا جثثا لحب مع العبريين . في حين أن الأنبياء اليهود طالما قالوا إن إسرائيل مستحقة نورا بفضاء لسان الأمم . كذلك نظرت الأمم الإسلامية إلى نفسها باعتبارها دارا للسلام . بينما اعتبرت العالم كله دارا للحرب . وقد كان للامان قبل هنر نشيد وطني يقرر أن : ألمانيا فوق الجميع . ولعل ديوبول لم يكن الفرنسي الأول الذي تحدث عن دور فرنسا الحضاري في العالم .

وهكذا فإن خرافة التفوق الحضاري للأمم بعضها على بعض . وفي نفس الوقت إيماها بوحشية بقية الأمم الأخرى وعدم الاعتراف بأن سائر الأمم تمثل الحضارة بأي حال . وإلا فما معنى أن يسمى الانكليز أحد الأمراض بالمرض الفرنسي مع أنه الذي يكاد لا تخلو من الإصابة منه أمة من الأمم . وما معنى أن يسمى الفرنسيون المرض ذاته بالمرض الإيطالي . وما معنى أن يطلق الانكليز في الشرق الأوسط على المصريين لقب « عجم » وهو لقب لا ينطوي على معاني الاعزاز على أي حال ؟ وأن يعتد أهالي أمريكا اللاتينية أهالي أمريكا الشمالية بالخير - جمع أخضر -

وأن يكون اسم « يهودي » في كافة اللغات الأوروبية تقريبا مرادفا للشر والبل . وأن تحمل لفظة « جوي » لدى اليهود . ومعناها « لا يهودي » معاني الحق والقسوة . أغلب الظن أن أصل هذا الاستقطاب في أفكار الأمم عن نفسها وعن الآخرين يعكس قلق الأمم تجاه ما هو مختلف عنها . على أساس أن ما يختلف عنا قد يجتذب انتباهنا ويوقف



حب استطلاعنا . ولكنه في الوقت نفسه يبحث فيها المخاوف . فكل ما هو مختلف نظر إليه على أنه خطر يهددنا أو يهددنا بالتغيير . ولا شيء يبرهن أكثر من الشيء المجهول . وليس ثمة أشد بقاء على الأطمئنان من أن يحيط بنا ما هو معروف . ومألوف .

وعلى ذلك فحقولنا من الشيء المختلف هو خوف من الحسارة . ومن إمكانية التغيير .

ولذلك فإنه عند ترجمة هذه المخاوف إلى معاني المصلحة الوطنية تكون النتيجة رفضاً قاطعاً لثابتة كل ما هو مختلف والتعايش معه . وربما كان هذا هو أحد العوامل الأساسية لشوب النزاعات والحروب . فهكذا كانت بعض المواقف العربية تجاه إسرائيل تنسم مبدلاً بالرغبة في احتواء الدولة اليهودية احتفاءً كلياً . وهكذا أيضاً كانت الدولة اليهودية بالنسبة إلى الكثير من العرب أمراً شاذاً . من الواجب العمل على إبادته . ولكن هذا الهدف تغير بعد ذلك عندما تبين أن العالم أكثره قد أعرب عن رفضه لثل هذه البات . فأصبح الرأي العربي . المصحح - المذهب . أن السلام مع إسرائيل لا يمكن أن يجل إلا بعد أن تغير إسرائيل طبيعتها . وقد أضاف بعض المصريين مؤخرًا إلى هذا أنه بعد أن يجل السلام ستحرف إسرائيل لتأثيرات عربية مثل العادات والعال والحضارة العربية مما سيحسم عنه أن تعود إسرائيل بلداً شرقياً وتنفذ ميزتها اليهودية الخاصة .

هذان إذن هما طرفا الاستقطاب : جانب يريد الآخر أن يتقدم أو على الأقل أن يتغير جذرياً وكلياً . والجانب الآخر يجتني الاعتماد والتغيير وفقدان الميزات الخاصة .

ولم يجد في غضون السنوات الثلاثين الأولى من النزاع اعترافاً لدى أي من الجانبين بأن للجانب الآخر حقاً في أن يكون مختلفاً في مواقفه كلها . فإن النزاعات ليست بهذا الشكل . وسبب الاستقطاب قبل النزاعات إلى نوع صفة الانسانية عن العدو وأن يجعل منه مخلوقاً ذا صورة معينة .

بعد حرب أكتوبر جاء منتج سبائي إلى إسرائيل ومصر لانتاج فيلم وثائقي عن عائلة لكل . وعندما أجرى هذا المنتج مقابلة مع فتى مصري في السادسة عشرة من العمر كان أخوه الطيار قد قتل في الحرب . أعرب الفتى المصري عن كراهية شديدة لإسرائيل وتعطشاً للانتقام . عندها عرض المنتج أمام العائلة المصرية فيما كان قد صوره عن عائلة إسرائيلية فقدت هي الأخرى أحد أبنائها في الحرب . فبكى الفتى المصري عندما رأى الفيلم وقال : لم يدر في خلدني أن الإسرائيليين يشيرون هذه العائلة . أني اسحب كل ما قلته من قبل . لقد حطم الفيلم الصورة عندما ظهر العدو فجأة بشكله الإنساني . بشكل من يمكن الشعور بشعره والإحساس بحواسه .

لعل أهم وظائف التنظيف والتعليم إبان عملية السلام هي العمل على إبدال الصورة النمطية بمفاهيم إنسانية . وعلى الأفلاطون من مرحلة صنع الخرافات إلى مرحلة التفاهم الإنساني . وباختصار إزالة المخاوف التي كانت حتى اليوم تحدد

مفاهيمنا . وكثيراً ما نتقدها .

ولكني نحقق السير جداً من الأفكار المسبقة إلى التعاطف . أي من موقف مغلق ومشتع بمشاعر الخوف والقلق إلى موقف مفتوح من علاقات العطف المتبادل علينا أن نبتغ بعضنا بعضاً في موضوعين اثنين على الأقل : أحدهما أنه علينا أن نجعل الطرف الآخر يرى ما هي الصور النمطية التي كان قد خلقها عنا والتي نكرها ولا نقبلها وأن علينا أن نبحث عن وإياد طرق إزالة هذه الصور ونحوها . والآخر : علينا أن نتعارف ونطلع بشكل متبادل على ما يميزنا الواحد عن الآخر وعلى ما هو مشترك بين مجتمعنا .

فما يتعلق بمصر وإسرائيل برزت صورة معينة . ففي الجانب المصري : اليهودي مختلف ومنحط بالنسبة لسائر بني الإنسان . الإسرائيليون عدوانيون واستعماريون . الصهيونية حركة عنصرية . إسرائيل شكل حديث من مملكة الصليبيين . الإسرائيليون لا يؤمنون . وفي الجانب اليهودي : العرب ناس بدائيون . العرب سفاكوك دماء . العرب يتأثرون دوماً على تدمير إسرائيل . العرب لا يؤمنون .

إن الخطوة الأولى بعيداً عن هذه الأفكار المغلوطة هي في النظر إلى هذه الأفكار على أنها حقا أفكار مغلوطة أصلاً . والخطوة الثانية الكفيلة بالنجاح يجب أن تكون اتخاذ قرار ملزم من جانب كلا الطرفين بالامتناع تماماً عن استعمال هذه الأفكار المغلوطة . وإذا استطاع كلا الطرفين بهذا الشكل أن يطورا وسيلة حديثة لإزالة مثل هذه الصور النمطية من عقول شعبها فإنها يكون بذلك قد اتخذاً نحو تعميمها وأغلب التجربة العالمية في مجال الثقافة والتعليم .

على أن الابتعاد عن الصور النمطية لا يعدو كونه جزءاً فقط من عملية التنظيف والتعليم . وهو ممكن إذا توافر الاستعداد لاستكشاف ما هو مشترك للشعبين وما هو خاص ومميز لكل منهما . وفي حالة إسرائيل ومصر عدد من الصفات المشابهة التي تشمل مثلاً على قدمتها . وعلى كونهما يتشبان إلى أصل مشترك يحكم كونهما من سلالة إبراهيم الخليل عليه السلام . وعلى كون لغيرهما من أصل سامي واحد . وعلى أنهما يؤمنان بدينين موحدتين بالله . وعلى كونهما يحدان كيانها السبادي بعد قرون وقرون من التحكم والتعسف الأجنبي . وعلى روح المرح التي تبسم بها كلامهما . وعلى كثرة وتعدد مشاكلها الثقافية والتعليمية .

أما ما هو خاص بمصر فعوضاً وادي النيل . وثورات الفراعنة . وكون مصر مركزاً للعالمين العربي والإسلامي . وعظم وعسر مشاكلها السكانية الناتجة عن زيادة مليون نفس في السنة . وأساليب الحياة الخاصة بمصر .

وأما ما هو خاص بإسرائيل فحضارتها المستمدة من الكتاب المقدس . وكون أورشليم مدينة ينقل المراء فيها في طرف دقائق عبر الزمن من الزمن . وأشكال تاريخ جيلها المعاصر على الكارثة وعلى الاستقلال . وأحياء اللغة العبرية وجمع شمل شتات الشعب في وطنه العجيد وكونها مرة أخرى مركز العالم اليهودي . والكنيست والموشاب وأقليتها العربية الكبيرة . هذا قليل من كثير من العناصر المشتركة والخاصة .



إلا أن الصعوبة ليست في كيفية أعداد القوائم . بل كيفية جعل العناصر المشتركة والخاصة في هذه القوائم أساساً لبرنامج لقاء وتعليمي فعال في كلا البلدين . إن عملية التنظيف والتعليم يمكن تخطيطها في كلا البلدين في آن واحد على المستويات المختلفة التالية : تبدأ المدارس والجامعات في مصر وإسرائيل باستعراض مشترك لما تقوم بتعليمه الواحدة عن الأخرى . ويقصص وإعادة كتابة كافة كتب التعليم التي تدور حول مصر وإسرائيل والنزاع العربي الإسرائيلي . فإن ما سيتعلمه أطفال مصر وإسرائيل في الثمانينات أحدهما من الآخر سيؤثر أشد تأثيراً في كيفية تعايشها في السبعينات .

ولما كان الدين عند كلنا الأمن جزءاً لا يتجزأ من الحياة فإن جهداً خاصاً يجب أن يبذل لإقامة حوار بين قادة دينيين من المسلمين واليهود . حوار يكون التوحيد بالله بالطبع محوراً مشتركاً . ويكون من مواضعه الممكنة كيفية قيام دينين متمايزين قامة أصلاً على رفض عبادة الأصنام بتجديد كتابها لمظاهر الشرك الحديثة التي منها الصور النمطية التي اسلفنا ذكرها .

ولقد قال الرئيس السادات أكثر من مرة إن الوقت قد حان لسد الفوة التي خلقتها آلاف السنين ما بين الديانتين . ولعل الأحكام الأكثر في إسرائيل للظوائف الشرقية الأحكام عمودياً يوسف قد أدلى بسهم وافر من جانبه نحو تحقيق مثل هذا الحوار عندما نبه الإسرائيليين ألا يخلطوا أبداً بين مصر الحديثة وبين أسلافها في عهد الكتاب المقدس . إن مثل هذا التصريح لابد أن يكون له أثر عميق في أنفس جاعات إسرائيلية معينة متمسكة بالدين والتقاليد .

كذلك ينطوي دور القادة السياسيين في مجال التنظيف والتعليم بحكم مكانتهم الاجتماعية على أهمية عظمى . وقد قدم الرئيس اسحق رافون مثلاً على ذلك في بيان للأمة الفاء بالتلفزيون على أثر التوقيع على معاهدة السلام . فقد كرس الرئيس رافون جزءاً كبيراً من بيانه ليعدد للجماهير الإسرائيلية . بعض الحقائق الأساسية عن مصر وعن حضارتها وعن مشاكلها الراهنة .

وعلى غرار ذلك فإن في وسع الزعماء السياسيين أن يصبحوا منقذين ومعلمين . وفي الإمكان أن يكون جزء هام من تعاليمهم على مدى الحرارة التي تلقن بها فإن الرئيس رافون قد أصاب لاشك عقول وقلوب مشاهديه وسامعيه عندما تحدث عن قضايها مصر بمنحني العطف والحناءة .

ولوسائل الإعلام هي الأخرى دور ثقافي وتعليمي واضح . فإن في وسعها أكثر من تقديم مجرد أخبار . في وسعها أن تساعد على جعل حقائق الحياة في البلد الآخر أسهل تفهماً . في قدرة وسائل الإعلام خاصة التلفزيون أن تأتي بطرف الحياة في مصر إلى داخل البيت الإسرائيلي والعكس بالعكس .

كذلك السباحة . فلها هي أيضاً دور فعال في التنظيف والتعليم . فإن مصر ليست أهراماً ونيلاً فقط . وإسرائيل هي أكثر من حائط مكي ومسادا . كما أن الفنادق والمطاعم ليست بالضرورة غير الواجهات التي يمكن من خلالها مشاهدة المظاهر الإنسانية للمجتمعات .

ومن العوامل الأخرى التي يمكن أن يكون لها دور واضح فعال في مجال التنظيف والتعليم هي العلم والتكنولوجيا . فهناك على سبيل المثال الحصر مجال للتعاون في أمور معينة كالزراعة والطب والهندسة المالية وعلم الآثار وأساليب التعليم .

وأخيراً . فإن أحسن السبل إلى التعليم والتنظيف هو تبادل التجارب . لعل الجندي المصري والجندي الإسرائيلي يفهم أحدهما الآخر أكثر من فهم سائر المصريين والإسرائيليين بعضهم لبعض الآخر . وهذا يعود إلى أن الجنود من الطرفين قد كانت لهم تجارب مشتركة يحكم كونهم قد حاضروا أربع حروب ونفذوا اتفاقيات لوقف النار وتوصلوا إلى السلام

المشترك. والظاهر أن الصحفيين المصريين والإسرائيليين هم أيضا قد تمت بينهم زمالة عميقة بفعل ما بينهم من مصلحة مهنية مشتركة. منظم في ذلك مثل رجال الأمن المصريين والإسرائيليين الذين كفوا كل من جانب رعاية وحماية زملائهم فحاشا بينهم بفضل ذلك صداقات حميمة. وفي الإمكان أن نقول الشيء ذاته في المستقبل. عن أحقهم الخطوط الجوية وأحرق كره القدم والأطباء والمزارعين ورجال الأعمال والعلماء والباحثين والفنانين. كل هؤلاء. بواسطة العمل معا في مجالات عمل مشتركة يمكنهم أن يتفقوا ويعلموا بعضهم بعضا حول معنى المصري ومعنى الإسرائيلي. يمكنهم طبعاً أن يفعلوا ذلك بشكل مفيد أو بشكل ضار.

لقد عالجت في السطور السابقة سلسلة من امكانيات النشاط. ولكن علينا أن نتوقف لسؤال: هل هذه الامكانيات سهلة التحقيق مثلاً يبدو لأول وهلة عندما نعددها.

إن نقطة انطلاقاً هي الحاجة إلى تغيير المفاهيم. ولعل وجود مفاهيم متفاوته لدى كلا الطرفين يشكل أحد العبات في تطور أية عملية من عمليات التنظيف والتعليم. وعلينا ألا ننسى أن المصريين والإسرائيليين شعبان يمتلكان مفاهيم مختلفة جداً في مواضيع ومجالات غالبية مختلفة. ثم إن مصر أمه قوامها أربعون مليون نسمة تتكاثر بنسبة مليون نسمة في السنة. بينما إسرائيل لا يزيد تعدادها كثيراً على ثلاثة ملايين ونصف المليون أي أن عدد سكان مصر يزداد في ظرف كل أربع سنوات بمقدار عدد سكان إسرائيل بأسرها. وعلى ذلك فإن مصر يجب أن تشعر بالتعاطف مع بلدان كفرنسا أو إيطاليا بما قد تبدو إسرائيل في نظرها بلداً صغيراً. والصغير بالطبع أقل خطراً من الكبير. ولكنه أي الصغير قد يكون موضع احتضان وحماية. على أنه إذا تحدثنا عن الدخول القومي فالوضع يبدو على عكس ذلك. فالدخل القومي بالنسبة لكل نسمة في مصر لا يزيد على ثلاثمائة دولار. في حين أنه في إسرائيل يقارب الثلاث آلاف دولار الأمر الذي يعني فراقاً عظيماً في مستوى المعيشة وفي طبيعة الحياة. وكما قال هارولد لاسكي قبل جيل من السنين: «إن الشعوب التي تعيش على مستويات مختلفة تكون أفكارها أيضاً مختلفة». ولعل أهم الفوارق يمكن في سلم القيم الذي تتعين المفاهيم على أساسها. فإن ما يعتبر كمالياً في مجتمع من المجتمعات يعتبر ضرورياً في مجتمع آخر.

وعلياً لا يقلل من أهمية حقيقة كون الملايين المتعددة من المصريين ينسكون بالقيم الإسلامية وهذه القيم مثلها مثل قيم أية ديانة محاربة تمنع التسامح أحياناً تجاه الأجنبي وتجاه الحضارات المختلفة. ولقد جابه الإسرائيليون الذين زاروا القاهرة خلال الستين المائتين صدى مذهباً كلاً أعربوا عن رغبتهم في زيارة جامعة الأزهر التي تعد أهم مركز للأبحاث الإسلامية في العالم. وعلياً ألا ننسى أيضاً أنه لا يزال هناك بين المصريين المثقفين تيارات فكرية واديكالية يدينون أوتومايكيكا بفكرها معادية للعرب وللصهيونية وبالطبع لإسرائيل أيضاً. إن مفاهيم مثل هذه الجماعات الدينية منها والرايديكالية كثيراً ما تكون مسدودة إزاء أي تغيير. ذلك لأن استعداد الجماعات للتعليم من العالم ينحصر في عقائد محدودة ترفض التعديل والتبديل.

أما اليهود الذين عاشوا بين العديد من الشعوب على مر العصور فقد يكونون أشد قدرة على تفهم ومساغة طرق حياة مختلفة. ولكن بين العديد من اليهود في إسرائيل لاتزال تسود مشاعر قديمة من الخوف وعدم التسامح تجاه الأجنبي. هؤلاء هم الأقلية ولكن قدرتها على التعبير عن نفسها ومقدار نفوذها في السياسة الإسرائيلية تزيد كثيراً عما يقضيها عددها القليل.

وإذا كان ثمة مجال خطير ينبغي فيه بشكل خاص أن تلعب عملية التنظيف والتعليم دوراً عميقاً فإن هذا المجال هو احوال

المتعلق بالمسألة الفلسطينية. فإن كثيراً من الإسرائيليين لا يزالون في حاجة إلى أن يتعلموا أنه بدون حل مقبول للمسألة الفلسطينية فإن النزاع العرقي الإسرائيلي نفسه يبق بعداً عن الحل كما أن كثيراً من العرب وخاصة العرب الفلسطينيين يسعى أن يتعلموا ويفرطوا أنه ما داموا ملتزموا علماً بالتعايش مع إسرائيل سيقولون بعيدن عن حل قضيتهم بالذات وهكذا فإن الفلسطينيين والإسرائيليين عند تصارعهم بعضهم مع بعض إنما تمتلك كل طرف منهم بأشد ما يرغب فيه الطرف الآخر. الإسرائيليون يسكنون بتقاليد الحكم الذاتي للفلسطينيين والفلسطينيون يسكنون بتقاليد السلام الجماع الشامل.

هذا إذن عناه مشكلة التعليم والتنظيف في أشد تعقيداتها. فهل نستعيد عملية التنظيف والتعليم نهائياً على نظريات سياسية يشكل فيها الفلسطينيون الموضوع الحاسم أو نستعيد التطورات السياسية على عملية تنظيف وتعليم تتحقق بالتدريج عند كلا الطرفين؟ هذه هي الأسئلة التي طرحها في بداية بحثنا. هل نتجاهل هي التي تعني المصالح السياسية أو أن المصالح هي التي

تتجاهل؟ ومنها نكن الإجابة من البعد من التأكيد علينا أن ننظر إليها في نطاق عريض عام. وهذا سيكون آخر موضوع نبحثه. وكل من يتطلع إلى أوضاع الشعوب في عهدنا هذا لابد أن يذله عدد من التطورات التي قد لا يمكن إعادتها إلى أصلها على مر الزمن. من هذه التطورات نحو وسائل الاتصال بين الشعوب بما يجمع منها من تقارب مقدر بينها. وفي مدة ساعة من الطيران بين مصر إلى إسرائيل أحرق الرئيس السادات براعاً عمره جيل من الزمن. فلهذا أصبح فجأة وفي وسع الإسرائيليين والمصريين الذين كانوا حتى هذا الحدث لا يعرف بعضهم بعضاً مباشرة الا بالمرتب أن يدخلوا معا في تجربة مشتركة عن طريق التلفزيون والراديو. فعندما استعرض الرئيس السادات حرس شرف إسرائيل. أو عندما عرفت فرقة عسكرية مصرية الشيد الوطني الإسرائيلي على شرف رئيس الوزراء سامح بيحيى. كان الملايين من المصريين والإسرائيليين في آن واحد وكتائب حاضرون في عبريات الأحداث. إن مقدرة شعب بأسره على المشاركة الفورية في حدث تاريخي لم يكن في الإمكان حدوثه قبل جيل من السنين.

إن علماً يمكن فيه الوصول من القاهرة إلى أورشليم ومن أورشليم إلى القاهرة في ظرف ساعة واحدة فحسب عالم لا يعد في كل من القاهرة وأورشليم أكثر من أربع ساعات من أوروبا وأحدى عشرة ساعة من أمريكا. لعالم يتمكن فيه رؤساء دول ورؤساء حكومات من الاتصال ببعضهم بعضاً بالتليفون إنه عالم أصغر وأقرب وأشد اختلافاً من العالم الذي ولدت فيه هذه الأمم والذي ائسم بالتحيز وبانعدام الثقة وتخلق الحرافات.

على أن هذا الاتصال الفوري وهذا القرب الممكن بطريقة التنقل السريع لا يعدوان عن كونها وسائل ووسائط. فإن ما يحصل بين الأمم عندما تنافر لديها هذه الامكانيات هو المشاكل العسيرة الحل. فهل يفهم ويقدر الملايين من السياح الذين يزورون بلاداً اجنبيه الحضارات الإنسانية التي يصادفونها والتي قد تكون على أشد الاختلاف مع حضاراتهم؟ وما هو رد فعل الشعوب عندما تجابه الاجانب وحضاراتهم الأجنبية بين طهرانياً؟ تنوش؟ علماً تجربتها ووجدانيتها القومية؟ أفلا تعود في مثل هذه الأوضاع إلى مخاوف القديمة. من الغرب والخلف الذي يهددنا بالانجراف ونعتبرنا إلى درجة لا يمكن التعرف علماً بعدها؟ لاشك أن ليس ثمة أجوبة سهلة من هذه التساؤلات. غير أنه من الواضح إذا استخدمت وسائل الاتصال والتنقل بصرف النظر تماماً عن الهدف التعليمي والتنظيف فإن النتيجة لابد أن تكون ليست التفاهم بل سوء

التفاهم وشعور الغربة الشاذل.

والظهور المذهل الثاني هو ارتفاع أسعار الحروب الحديثة بشكل هائل لدى كل الأمم الكبيرة والصغيرة. وبما يترتب على ذلك أن تفوق تكاليف حرب أخرى بشكل هائل كل ما تكبته من هذه الحرب. وفي الشرق الأوسط أصبحت الحروب الحديثة المروعة بأحدث الأسلحة واحكامها تتر بها كواهل كافة الشعوب المتورعة مباشرة بالنزاع العرقي الإسرائيلي. وليس بين هذه الشعوب واحد يستطيع تمويل ميزانية دفاعه من جيبه الخاص. بل كلها تحتاج إلى العون الخارجي الكثير.

والظهور المذهل الثالث هو زيادة الاعتماد المتبادل بين الأمم. واعتماد متبادل في تطوير مقومات الحياة والحصول عليها. وفي تبادل المنتجات والتكنولوجيا وفي مساعي الحيلولة دون كوارث الحروب. إن إسرائيل في حاجة إلى البترول المصري. ومصر في حاجة إلى التكنولوجيا التي مكنت إسرائيل من إنتاج القطن للقدان الواحد بمقادير تبلغ ثلاثة أضعاف ما ينتجه القطن في مصر. وكل من مصر وإسرائيل شامتا أم ابنا تعتمدان على الولايات المتحدة في المجالات الاستراتيجية والاقتصادية. ثم إن العلاقات الاستراتيجية بين الدول العظمى تحد من حرية المناورة لدول الشرق الأوسط لما يحدث في الشرق الأوسط يؤثر في سبل البترول إلى أوروبا وأمريكا. والتكنولوجيا والمنتجات الأوروبية والأمريكية لابد أن تؤثر في نوعية الحياة في الشرق الأوسط.

قد يكون الاعتماد المتبادل مغيظاً ومشطاً للهمم. وذلك لأنه يناق ما كان مألوفاً في القدم من أن تكون السيادة القومية مرادفاً للاكتفاء الذاتي. على أن ذلك ليس بعد من المستطاع في عالمنا الذي صار بشكل نظاماً متشابكاً متضافراً. وليس ثمة دولة حتى لو كانت قوة عظمى تستطيع حل مشاكلها لوحدها. وما هو صحيح بالنسبة إلى العلاقة كالكوليات المتحدة والاتحاد السوفيتي والصين يصبح أكثر بالنسبة للأمم الأصغر كصغر وإسرائيل. فإذا كنا نريد حلاً لنحل مشاكلنا فلم يعد في وسعنا أن نفعل ذلك وحدنا بل لابد من التعاون في ذلك مع الأمم أخرى. هذا هو إذن الموضوع الأكثر الثالث لهمة التنظيف والتعليم وإنه موضوع عسير خاصة لأنه من نواح متعددة يعكس التفاهم القديمة التي كانت تتطوى على التشكيك في كل ما هو أجنبي. ولعله ينبغي أن يكون من أهم أهداف التعليم والتنظيف إزالة كلمة «أجنبي» من قاموس مواقفنا. بدل أن نقول «أجنبي» لنقول «مختلف» فإنا جميعاً ننسب إلى نفس المجموعة من الأمم والشعوب التي تختلف عنا قد تكون هي في واقع الأمر القادرة على إعانة خبر إعانة على حل المشاكل التي لا نستطيع حلها وحدنا.

هذه المواضيع الثلاثة للتعليم والتنظيف تلتقي في نقطة واحدة. فإن ازدياد الاتصالات المتبادلة وازدياد الاعتماد المتبادل هما تطوران بعيدا المدى لامتصاص للمجتمعات البشرية من المشاركة فيها في نهاية المطاف. ونحن بل العولمة التي لا مناص للأمم من تحملها في حالة امتعائها في عناد الأساليب القديمة من التنافر والانفصال هي كارثة هائلة مريعة. فعلى شئنا ذلك أم أينا أن نعلم التعايش لأن التعايش يقع في الامتداد الذي لا مفر منه في سيرة الأمم.

لفعل الحل القادم في كل من مصر وإسرائيل أن يبررغ ليس فقط على أساس الافتخار بالانتماء إلى امتها. بل كذلك على أساس أن يتعلموا وأن يفركوا أنها مبريكات في مجموعة الأمم المتكافئة المتبادلة الاعتماد. فلنكن متخلفين بعضنا عن بعض ولكن بدون تباعد. ولنتعلم الاعتماد بعضنا على بعض مع دعم وتأييد استغلال كل منا. ولنقيم معا بتغيير أساليب النزاع القديمة ولتزل الجهالة بحدونا السلام الذي سدها ولحمته: أن نتعلم وإن نعلم التعايش.

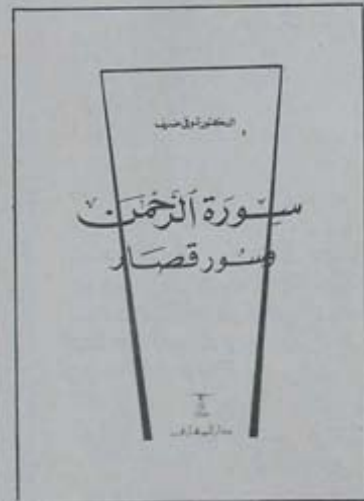
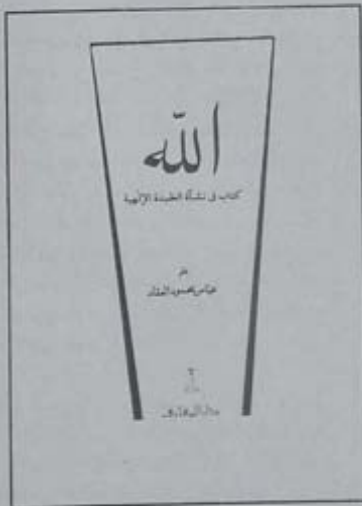


دارالمعارف

تَقْدِم

من كتب د. عبد الحلیم محمود

- محمد رسول الله
- القرآن في شهر القرآن
- الحمد لله هذه حياتي
- فتاوى عن الشيوعية
- فاذكروني أذكركم
- الصلاة أسرار وأحكام
- الطريق إلى الله
- الأيسراء والمعراج
- شهر رمضان
- القرآت والنبى
- سفیان الثوري
- السيد أحمد البدوي
- أوربا والإسلام
- أبو ذر الغفاري والشيوعية



دارالمعارف